الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
People's Democratic Republic of Algeria
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
Ministry of Higher Education and Scientific Research

جامعة محمد بوضياف بالمسيلة
كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية

Mohamed Boudiaf University of M'sila
Faculty of Humanities and Social Sciences

المستوى: السنة الثالثة ليسانس
القسم:علم الاجتماع
التخصص:علم الاجتماع

مطبوعة:

العلم والأخلاق

طبيعة المقياس: ***سداسي***
إعداد الدكتور: ***بن الطاهر حمزة***
الايميل: hamza.bentahar@univ-msila.dz

السنة الجامعية 2024/2023

المحاضرة (03): المعالجة التاريخية لموضوع الأخـــــــلاق وعلاقتها بالعلم

- مقدمة :

I- ماهية الأخلاقية

II- كرونولوجيا تطور مفهوم" الأخلاق" في سياق تطور الفكر الإنساني

III- المصطلحات المرتبطة بمفهوم الأخلاق

IV- مصدر الأخلاق

V- العلاقة بين العلم والاخلاق

د. بن الطاهر

المحاضرة (03): المعالجة التاريخية لموضوع الأخـــــــلاق وعلاقتها بالعلم

مقدمة :

تشكل الأخلاق ركناً أساسياً من أركان الوجود الاجتماعي، ونسقا حيويا في نسيج الحياة الإنسانية المعاصرة. فالأخلاق نظام من القيم يوجه حياة الفرد وينهض بها إلى أرقى مستوياتها الإنسانية. والإنسان لا يحقق جوهره الإنساني إلا في صورته الأخلاقية، لأنه الكائن الوحيد في مملكة الكائنات الحية الذي يضحي برغباته وميوله على مذابح السمو الأخلاقي سعياً منه إلى تجسيد قيم الحق والخير والشرف والكرامة والتسامح وكل القيم والفضائل التي تشكل جوهر الحياة الأخلاقية وغايتها.

لقد أقرّ المفكرون والباحثون على مرّ التاريخ الإنساني أن حياة المجتمعات الإنسانية لا تستقيم من غير القيم الأخلاقية، وذلك لأنها تشكل النسيج الحيوي لوجود الإنسان والمجتمع في آن واحد. ومن هذا المنطلق فإن غياب القيم الأخلاقية أو تدهورها يؤدي بالضرورة إلى تصدع المجتمع وانهياره وتداعيه. إذ لا يمكن لا أن تقوم للمجتمع قائمة من غير القيم الأخلاقية ومن غير الفضائل التي تضمن له التماسك والوحدة والقوة والانسجام.

I- ماهية الأخلاقية:

الأخلاق من المفاهيم الإنسانية التي أخذت حظها الوافي من أراء المفكرين و خطابات الفلاسفة و مهاترات أهل الدين وأصحاب العقائد، ولعل الباحث فيها يلاحظ الحالة الكبيرة لانتشار التأويلات والتفسيرات المتعلقة بالأخلاق قد تنتهي به إلى الاعتراف بعجزه التام وعدم قدرته على إيجاد صيغة واضحة تمكننا من ضبط المصطلح وتحديد أبعاده، الأمر الذي يقتضي من الباحث تتبع المصطلح ضمن مكنوناته والاجتماعية والدينية وكذا الفلسفية.

I-1- الأخلاق لغةً:

الأخلاق (جمع) مفرده (خُلُق) وهو مجموعة صفات نفسية وأعمال الإنسان التي توصف بالحسن أو القبح، يُقال فلان دمث الخلاق أي حسنه، قال **رسول الله** ﷺ:﴿إنما بُعثت لأتمم مكارم الأخلاق﴾.

والخُلق في لغة العرب هو الطبْع والسجيّة وقيل المروءة والدِين، قال العلامة **ابن فارس**: " الخاء واللام والقاف أصلان" أحدهما تقدير الشيء والآخر ملامسة الشيء".

وتخلق بأخلاقه بمعنى تطبع بطباعه؛ فتقول العرب لا تتخلق بأخلاق السفيه ومنها (إخلولق) التي هي من أفعال المقاربة الموضوعة لرجاء وقوع الفعل بمعنى (عسى).

قال **الفيروز آبادي**:"الخُلق بالضم هو السجية والطّبع، والمروءة والدين.

وقال **ابن منظور**: "الخلق" الخليقة أعني الطبيعة"، وفي القرآن الكريم: ﴿ وَاِنَّكَ لَعَلى خُلُق عَظِيم ﴾ (سورة القلم، الآية 4)

I-2- الأخلاق اصطلاحاً:

مبلغ التعاريف الاصطلاحية هو ما أُتفق على معناه من طرف العلماء والمفكرين في ميدان ما حول مفهوم أو مصطلح ما، وقد يُنسب التعريف إلى عالم أو مفكر؛ كأن نقول عرفه فلان، أو يُنسب إلى الميدان التخصص فنقول تعرفه السوسيولوجيا او يعرفه علم النفس...الخ

وهذا الأمر ينسحب بجلاء على التعريف الاصطلاحي للأخلاق الذي عرف هو الآخر انتشاراً كبيراً للمعنى وتمايزاً واضحاً بين مختلف التخصصات.

I-2-1- التعريف الفلسفي للأخلاق:

عرَّف بعض علماء الفلسفة **كأَرسطو** و**أفلاطون** وغيرهم الأخلاقَ على أنّها: "القدرة على التّمييز بينَ الخيرِ والشَّر عند الأفراد".

ويمكن تعريفها أيضاً من المنظور الفلسفي بأنّها:"الفضيلة التي يَتغلَّبُ فيها الجانِبُ الإلهيُّ على جانِبِ الشهوات وتفضيل المحبوبات والمرغوبات"

كما يَرى بعض الفلاسفة أنَّه يمكن تعريف الأخلاق بأنّها: "القدرة على ضبط الشَّهَواتِ بالعَقلِ ومُمارسَة الفَضائِل والمكارم من الصفات وتمييز الحسن منها من القبيح".

ولا يكاد يُصادف فيلسوفاً إلا وقد تحدث في موضوع الأخلاق و أوسمه بسمة خاصة به، حتى أصبحت الأخلاق مذهباً فلسفياً يرتع فيه كل الفلاسفة باختلاف مشاربهم وتوجهاتهم الفكرية؛ فيرى- على سبيل المثال لا الحصر- الفيلسوف الألماني **إمانويل** كانط **Immanuel Kant** - مؤسس أهم المذاهب في الأخلاق- الفعل الموصوف بالحسن خلقياً هو الفعل الذي لا بدّ له من أن يتمتع بثلاث خصائص:

* أن يكون الفعل اختياريًّا؛ أي صادر عن كامل إرادة الإنسان الحرة.
* أن يكون منسجمًا مع أداء التكليف ويطلق عليه اسم "الواجب".
* أن يصدر الفعل بنية فعل الواجب، وهذه النية يُصطلح عليها "احترام القانون الأخلاقي".

ومن أكبر من بحث في هذا الفرع من الفلسفة **لوك** و**هوبز** و**شافتسبري** و**هتشسون** و**هيوم** و**آدم سمِث** في إنجلترا وإسكتلندا، و**سبينوزا** و**ليبنتز** و**ولف** في ألمانيا.

I-2-2- التعريف السوسيولوجي للأخلاق:

إن الذهن ينساق عند سماع المذهب الاجتماعي إلى **أميل دوركهايم" Emile Durkheim** – العالم الاجتماعي الفرنسي الكبير الذي يعتبر من أبرز مؤسسي المذهب- الذي يذهب إلى القول إنه لا وجود للأخلاق دون المجتمع، ففي الوحدة لا شيء اسمه "فعل أخلاقي". وصرح بهذا قائلًا: "ظواهر المعتقدات والأعمال الدينية وقواعد الأخلاق وعدد لا يحصى من القواعد القانونية. أي هذه الأمور التي تعدّ من أكثر ظواهر الحياة الاجتماعية بروزًا. وظاهر أنّها جميعًا أمور ملزمة، وأن هذا الإلزام هو الدليل على أنّ هذه الأنماط سواء منها ما يتعلق بالعمل أم ما يتعلق بالتفكير، ليست من عمل الفرد، وإنّما هي في جملتها صادرة عن قوة معنوية تفوقه"

قال **زجلر:** «العرف مجموعة أعمال محدودة تواضع الناس عليها اعتباطًا، ونَمَت في أوساط خاصة سيما في المجتمعات الطبيعية والجنسية كالعشيرة والقبيلة، ثم صار يُعد انتهاكها تعديًا على الآداب، وإتباعها فضيلة.»

I-2-3- التعريف الديني للأخلاق:

إن المجتمع الديني يرى قيمه الأخلاقية منطلقة من المصادر الدينية التي توارثها عبر مراجعه الأساسية ومرجعياته الدينية سواء الممتدة عبر التاريخ أو المعاصرة له، فيشكل من تلك المصادر منظومة قيميّة متعددة الاتجاهات يحتكم إليها ويرى نفسه بمقدار التزامه بها، ومنظومة القيم كما يراها **عبد اللطيف خليفة** هي "مجموعة القيم المترابطة التي تنظم سلوك الفرد وتصرفاته، ويتم ذلك غالبا

من دون وعي الفرد، وبتعبير آخر هي عبارة عن الترتيب الهرمي لمجموعة القيم التي يتبناها فرد أو أفراد المجتمع، ويحم سلوكه أو سلوكهم دون وعي"

فأخلاق الإنسان في نظر المجتمع الديني ببساطة إما أن تكون صالحة أو شريرة، وعلى أساس صلاحها من عدمه يتحصّل نتيجة لها الثواب أو يكون العقاب، وربطت الديانات بين خوف الله والخلق الكريم ليكون طريق الجنة من خلالهما، وجاء الأنبياء عموما ليحققوا مكارم الأخلاق، وبذلك فلقد توثقت العلاقة بين القيمة الأخلاقية والمعتقد الديني لكون المعتقدات الدينية في الأساس توجيهية مباشرة ولكون المعتقدات الدينية متمركزة في توضيح ما يتعلق بما هو حسن أو سيء وما هو حقيقي أو مزيف وما هو مرغوب أو غير مرغوب، وذلك لأن الإنسان الذي يحتكم في قناعاته لما هو حسن وقبيح لمصادره الدينية يجعل من التوجيهات التي يرجع إليها، وتمثل قناعاته منظومة قيميّة يراها كاملة وبالتالي يرى نفسه متجها إلى الكمال بها، و من ثم يحكم على مجتمعه من خلالها فيقيم الآخرين من تلك المنطلقات ويحاكم مجتمعه على أساسها، من ذلك تكمن أهمية دراسة القيم العامة بشكل تفصيلي لكل قيمة وبإطار شمولي يجمع كل تلك القيم بإطار مشترك لتكتمل الصورة في ذهن المتبني لمنظومة القيم، وبالتالي يصبح حكمه على نفسه بداية صائباً وعلى المحيطين به ومن ثم على مجتمعه الصغير والكبير في هذا العالم، أي على الآخر الذي هو غيره بشكل صائب أيضا.

II- كرونولوجيا تطور مفهوم " الأخلاق" في سياق تطور الفكر الإنساني:

II-1- الأخلاق عند اليونان:

كانت السفسطائية تدعو إلى أن الطبيعة الإنسانية شهوة وهوى، ووضعت التشريعات بناءً على ذلك، وللرجل القوي بالعصبية أو بالمال أو بالبأس أو بالدهاء أو بالجدل أن يستخف بها أو ينسخها ويستبدلها، وقد أقام السفسطائيون المعرفة أيضًا على الإحساس أين ذهب زعيمهم **بروتاجوراس** إلى القول:" بأن الفرد هو مقياس الأشياء جميعًا، وأن الإنسان هو مقياس الحقيقة؛ فما يراه الإنسان صحيحاً فهو صحيح في مقياسه وخاطئ لدى غيره،"، وبهذا تتعدد الحقائق بتعدد مدركيها وامتنع وجود حق أو باطل في ذاته. ولأن كانت هذه النظرية في المعرفة، إلا أنهم مدوا أثرها إلى مجال الأخلاق، فقد جادلوا فيها أيضاً أهي وراثة اجتماعية أم مولودة بمعنى مغروزة في الإنسان منذ الولادة وأصبحت القيم والمبادئ الخلقية -تبعًا لذلك -نسبية تتغير كما قلنا بتغير الزمان والمكان. لقد أطاحوا بالحقائق الثابتة في مجال المعرفة وأبطلوا القول بالمبادئ المطلقة في مجال الأخلاق.

***- الفكر الأخلاقي عند سقراط:**

كان سقراط "أول من اهتم اهتمامًا ملحوظًا بدراسة السلوك الإنساني. حيث تصدى لمغالطات السفسطائية التي تستهدف زعزعة المبادئ الأخلاقية والاجتماعية، مما دعاه إلى الاهتمام في فلسفته بالإنسان وسلوكه بعد أن كان هذا الموضوع يشغل مكانًا ثانويًا في البحث الفلسفي السابق. فلم يحفل سقراط بالطبيعيات والرياضيات في عصره وآثر النظر في الإنسان، فانحصرت الفلسفة عنده في محيط الأخلاق لأنها-حسبه- أهم ما يتصلب الإنسان ويهمه وهذا معنى قول **شيشرون** إن **سقراط** أنزل الفلسفة من السماء إلى الأرض، أو أنه حول النظر من الفلك والعناصر الحسية إلى النفس، وتدور الأخلاق عند **سقراط** حول ماهية الإنسان.

رأى **سقراط** لزامًا عليه أن يهدم نظرة السفسطائيين في المعرفة أولًا لأنها أساس البناء الأخلاقي لهم، فأقام الحقائق الثابتة على العقل في ميدان المعركة بعد فصله بين موضوع العقل وموضوع الحس، وأصبح يرى أن الإنسان له عقل وجسم حيث قوة عقله هي التي تسيطر على دوافع الحس

ونزواته، مثبتًا أنه إذا كانت قوانين الأخلاق تتعارض مع الجانب الحيواني في طبيعتنا فإنها تتمشى مع طبيعتنا الإنسانية العاقلة، فقد أراد بناء الأخلاق على العقل وتأسيسها على قواعد ثابتة، ومنها أطلق **سقراط** عبارته المشهورة:" الفضيلة علم والرذيلة جهل". وهي ذاتها التي رسمتها الآلهة في قلوب البشر، فالذي يحترم هذه القوانين فإنه يحترم العقل والنظام الإلهي أيضًا، وحتى إذا احتال البعض لمخالفتها تفاديًا للعقاب الذي قد يتعرض له في الدنيا فسوف يُؤخذ بالقصاص -لا محالة- في الحياة المقبلة.

***- الفكر الأخلاقي عند أفلاطون :**

يعتبر الفكر الأفلاطوني امتداداً طبيعياً لتعاليم سقراط وتوجيهاته فقد كان أفلاطون يجلس بين يدي أستاذه سقراط طالباً مجتهداً ومنصتاً لكلامه الذي كان ينم عن شخصية مربية تحمل قبل الفلسفة قيما أخلاقية ومعايير كثيرة من الفضيلة. لهذا جعل **أفلاطون** من الأخلاق عنصراً أساسياً في مختلف تصوراته الفلسفية التي ترتبط بمعاني العدالة والسياسية والحكمة وغيرها. فقد تابع أفلاطون أستاذه **سقراط** ابستمولوجيًا وأخلاقيًا؛ ففي المعرفة فصل بين المعرفة الظنية بالمحسوسات والماهيات المفارقة للمادة "المُثل"، ومن هنا عد الخير أسمى المثل وهو عنده مصدر الوجود والكمال.

و**لأفلاطون** دور كبير في إبطال الاتجاه السفسطائي الذي أقام الأخلاقية على الوجدان، إذ استهدف أفلاطون جعل القانون الأخلاقي عامًا للناس في كل عصر ومكان، ولا يتيسر هذا إلا بإقامته على أسمى جانب مشترك في طبائع البشر ونعني به العقل، فرأى أن الفعل الخلقي يتضمن جزاءه في باطنه؛ حيث الإنسان الفاضل يؤدي الفعل الخير لذاته باعتباره غاية في نفسه، واعتبر **أفلاطون** - كأستاذه **سقراط**- أن النفس أسمى من الجسد فهي الحاصلة على الوجود الحقيقي وما وجود الجسد إلا وجودًا ثانويًا وغير مؤكد "وهو الذي يحمل قواها الروحية النبيلة ويوجهها وجهة غير أخلاقية لأنه مصدر الشرور والآثام. ولهذا فإن النفس تشقى بهذا الوجود الأرضي وتعود فتحاول الانطلاق من محبسها لتصعد إلى العالم المعقول.

ولما كان اهتمام **أفلاطون** بالفرد ككائن اجتماعي أيضًا يعيشه في ظل نظام سياسي معين فإن الأخلاق ارتبطت عنده بالسياسة، ولهذا فإن الحكيم في السياسة بوجه خاص يجب عليه الاعتدال وضبط شهواته قبل حكمه على الآخرين وإلا فسدت حاله وحالهم. وردًا على حياة اللذة التي تصورها أتباع المذهب السوفسطائي فإن **أفلاطون** رأى العكس أن خفة الانفعال وضعف اللذة والألم- سمة الحياة الفاضلة- هي ألذ حياة، بينما حياة الرذيلة هي التي تتسم بالألم الذي يغلب ويدوم.

والفضائل عنده أربعة؛ ثلاثة منها تدبر قوى النفس وهي:

* - الحكمة فضيلة العقل تكمله بالحق، وهي أولى الفضائل ومبدؤها.

* - العفة فضيلة القوة الشهوانية تلطف الأهواء.

*- الشجاعة وهي فضيلة القوة الغضبية. وإذا ما تحققت الفضائل الثلاث للنفس تحقق فيها التناسب والنظام، الحالة التي يسميها أفلاطون العدالة، وهي الفضيلة الرابعة (العدل والحكمة -في رأي هنري سيدجويك -هما الفضيلتان الرئيسيتان عند **أفلاطون**).

يذهب **أفلاطون** إلى ضرورة فرض أنواع من العقوبات على المنحرفين إلى الرذيلة، فليس أشنع من ارتكاب المرء جريمة ثم الإفلات بلا عقاب يصلحه ويقومه. ويظهر تأثر **أفلاطون** بالمذهب الفيثاغوري في تصوره الجسم بأنه مصدر شقاء النفس وأصل جميع الشرور؛ فهي سجن النفس

ومانعته من الانطلاق إلى العالم الأعلى، ولا خلاص لها إلا بالتطهر والمجاهدة، وهكذا تنتهي الأخلاق عند **أفلاطون** إلى نوع من الزهد والنسك.

***- الفكر الأخلاقي عند أرسطو:**

إذا كان أفلاطون قد وضع الشروط التي ينبغي توافرها في المقاييس الخلقية، فإن **أرسطو** هو وضع المذهب الأخلاقي المستند إلى فكرة السعادة يقول **أرسطو** في مقدمة كتابه "الأخلاق النيقوماخية": "إن كل فن وكل فحص وكذلك كل فعل واستقصاء يقصد به أن يستهدف خيرًا ما، ولهذا السبب فقد قيل بحق إن الخير هو ما يهدف إليه الجميع". ويفصل الغايات من الأفعال واختلافها، فيتساءل "فما هو إذن الخير في كل واحد منها؟" أليس هو الشيء الذي من أجله يصنع كل الباقي؟ " ويعدد الأمثلة التي يشرح بها رأيه فيقول "في الطب مثلًا هو الصحة، وفي فن الحركات العسكرية هو الظفر، وهو البيت في فن العمارة، وهو غرض آخر في فن آخر. لكن في كل فعل، وفي كل تصميم أدبي، الخير هو الغاية نفسها التي تبتغي".

ويختلف الناس في فهم السعادة حيث يقسمهم **أرسطو** إلى مراتب ثلاث من حيث السلوك الأخلاقي:

*- الغوغائية العامية ترى السعادة في اللذة، إذ يختار أكثر الناس بمحض ذوقهم عيشة البهائم.

*- أصحاب العقول الممتازة النشيطة وغايتهم تحقيق السعادة في المجد أو الكرامة السياسية .

*- تبقى المرتبة الثالثة من مراتب السلوك الأخلاقية وهي مرتبة حياة الحكمة والتأمل أو العيشة التأملية والعقلية وهي السعادة الحقة عند **أرسطو**. (ويمكن أن ننوه هنا إلى أن **أرسطو** اتخذ منذ البداية نفس موقف **سقراط** و**أفلاطون** في محاربة اللذة، واعتبر السعادة غاية قصوى.)

وترتبط السعادة في مذهب **أرسطو** بالفضيلة التي تنقسم عنده إلى قسمان؛

*- فضيلة السيطرة على الشهوات والأهواء بواسطة العقل.

*- وفضيلة الصنف الثاني في حياة التأمل -فضيلة الأخلاق- وهي أسمى من الأول بكثير.

فالفضيلة العقلية تنتج دائمًا من تعليم وإليه يسند أصلها ونموها، وهي بحاجة إلى التجربة والزمان، وأما الفضيلة الأخلاقية فإنها تتولد على الأخص من العادة والطبع الشيم، فالفضائل ليست فينا بفعل الطبع وحده، وليست فينا كذلك ضد إرادة الطبع، ولكن الطبع قد جعلنا قابلين لها، وأنما العادة تنميها وتتمها فينا.

ومن هذه العبارة ندرك أهمية التربية المنتجة للفضائل عند **أرسطو**، وإذا تساءلنا عن كيفية تحديد الفضائل الخلقية عند **أرسطو**؟ لعثرنا على إجابته عندما يتحدث عن أفعال الإنسان وضرورة الأخذ بفكرة الوسط، فكما أن كثرة الأطعمة تفسد الصحة فكذلك قلتها عن الحد اللازم، فالأمر كذلك بالنسبة للفضائل الإنسانية كالعفة والشجاعة وغيرهما "إن الإنسان الذي يخشى كل شيء ويفر من كل شيء ولا يستطيع أن يحتمل شيئا هو جبان، والذي لا يخشى البتة شيئًا ويقتحم جميع الأخطار هو متهور . كذلك الذي يتمتع بجميع اللذات ولا يحرم نفسه واحد منها هو فاجر. وهذا الذي يتقيها جميعًا بلا استثناء هو بنوع ما كائن عديم الحساسية، وذلك بأن العفة والشجاعة تنعدمان على السواء إما بالإفراط وإما بالتفريط، ولا تبقيان إلا بالتوسط(الفضيلة إذن هي وسط بين طرفين كلاهما رذيلة) ولكن هذا الوسط الذي يعنيه أرسطو هو وسط اعتباري يتغير بتغير الأفراد والظروف التي تحيط بهم، والعقل وحده هو الذي يعين هذا الوسط.

فالإسقاط المجرد لفلسفة **أرسطو** الأخلاقية تعتمد مطابقة المفهومين ببعضهما (الفضيلة والأخلاق) و الفضيلة هي وسيلة لغاية هي السعادة، ولذا فإن الفضائل إرادية تتعلق بنا شأنها شأن الرذيلة فهي تتعلق بنا أيضًا، أي إذا كان إتيان الفعل الصالح يتعلق بنا فإنه يتعلق بنا أيضًا ترك الفعل المخجل. هذا بإيجاز بعض معالم المذهب الأرسطي في الأخلاق، والذي لم يسلم من بعض المآخذ التي وجهت إليه -لا سيما في فكرة الوسط -فإن هذا الضابط لا يصلح لكل الفضائل، فإن الصدق مثلًا هو مطابقة الخير للواقع، ويظهر تكلف أرسطو حين يقول: "إن الصدق وسط بين التبجح وبين التواضع الكاذب".

II-2- الفكر الأخلاقي في الأديان السماوية:

إن المجتمع الديني يرى قيمه الأخلاقية منطلقة من المصادر الدينية التي توارثها عبر مراجعه الأساسية ومرجعياته الدينية الممتدة عبر التاريخ أو المعاصرة له، فيشكل من تلك المصادر منظومة قيميّة متعددة الاتجاهات يحتكم إليها ويرى نفسه بمقدار التزامه بها، ومنظومة القيم كما يراها **عبد اللطيف** خليفة هي مجموعة القيم المترابطة التي تنظم سلوك الفرد وتصرفاته، ويتم ذلك غالباً من دون وعي الفرد، وبتعبير آخر هي عبارة عن الترتيب الهرمي لمجموعة القيم التي يتبناها فرد أو أفراد المجتمع ويحكم سلوكه أو سلوكهم دون وعي.

فأخلاق الإنسان في نظر المجتمع الديني ببساطة إما أن تكون صالحة أو شريرة، وعلى أساس صلاحها من عدمه يحصلُ الثواب والعقاب، وجاء الأنبياء عموما ليحققوا مكارم الأخلاق، وبذلك توثقت العلاقة بين القيمة الأخلاقية والمعتقد الديني، وذلك لأن الإنسان يبني منظومة قيميّة خاصة يراها كاملة، يرى نفسه متجها إلى الكمال بها ويحكم على مجتمعه من خلالها، فيقيم الآخرين من تلك المنطلقات، ويحاكم مجتمعه على أساسها.

II-2-1- فلسفة الأخلاق في الفكر المسيحي:

جاءت الديانة المسيحية لتؤسس منظومة أخلاقية تستمد مفاهيمها الأساسية من العقيدة الدينية التي تبشر بالمسيح المخلص الداعي إلى السلام والأخوة بين البشر، غير أن النص الديني تعرض للعديد من التعديل والتشويه، وانتهى الأمر إلى اعتبار الكتاب المقدس (الإنجيل) الوثيقة الرسمية للكنائس المسيحية التي اختلفت فيما بينها في العديد من المضامين من حيث الشكل والمحتوى.. يقول المصلح اللاهوتي وعالم الاخلاق الامريكي كارل باول رينهولد نيبوهر **Karl Paul Reinhold Niebuhr** إن الكتاب المقدس المصدر الرئيس الذي ينهل منه المسيحيون في مجال الأخلاق thos، وأن النظرة المسيحية للأخلاق تنبع من مصدر يشترك فيه الكل وهو: الإيمان بطبيعة الله، وعلى هذا فإن الحياة المسيحية هي التجاوب بمحبة مطيعة لله وتحقيق إرادته، وهذه هي الوصية الأولى والعظمى، وإرادته هي محبة القريب مثلما أحب الله الإنسان (الأخلاق). ولذلك فإن النظريات الأخلاقية جميعها تترابط رأسيا مع الله وأفقيا مع القريب. يضيف **نيبوهر** قائلا: إن الأخلاق المسيحية Ethics عبر التاريخ واحدة وفي نفس الوقت متعددة القيم الأخلاقية Values، إذ إن هناك خيط يربط أشد الاتجاهات اختلافاً، Ethos فالحب الذي يربط البشر بالله هو الوصية العظمى والعامل المشترك بين كل التوجهات الأخلاقية. ويرى **نيبهور** أن اللاهوتيين العظام الذين كتبوا في علم الأخلاق أمثال **اكليمندس** و**أغسطينوس** و**توما الأكويني** وغيرهم، يرجعون إلى الكتاب المقدس بالرغم من إننا لا نستطيع أن نفهم فكرهم بمعزل عن الخط الفكري اليوناني الروماني، إلا أن التراث الكتابي يظل خطاً أساسياً في كتاباتهم وأفكارهم. ويبدأ **نيبهور** في تتبع التسلسل التاريخي من:

1)- العهد القديم : حيث اللاهوت والأخلاق لا ينفصلان في الكتاب المقدس، وهذا له أهمية قوية للبعد الأخلاقي في العهد القديم لأنه مؤسس بالتحديد على هُوِيَّة هذا الإله

2)- الكنيسة في القرن الأول : تتضح الملامح الأولى للأخلاقيات في وحدة الجماعة وهو ما يعود للتقليد اليهودي الذي نبعت منه المسيحية والانفصال عن العالم والعداوة له والاعتزاز بالمواطنة السماوية. وبتغلغل المسيحية وسط ثقافات مختلفة كان أمامها خيارين إما التشدد أو المرونة. عندما دخلت المسيحية القرن الثاني الميلادي بدأت تركّز على الدفاعيات ضد الهراطقة والأفكار الغريبة التي دخلت الكنيسة، وكانت تشدِّد على حفظ الإيمان والثبات فيه وتحديده في ألفاظ تحفظها وتكررها الكنيسة.

3)- الموعظة على الجبل : تركز الموعظة على المعية البشرية وأهمية محبة القريب.

4)- رسائل بولس: إن العلاقات المسيحية عند بولس هي أخلاقيات الجماعة التي يكون الله في المسيح - أو المسيح مع الله- حاضراً على الدوام وعاملاً على الدوام كمصدر للخير وحيث كل فرد عضو في الجماعة، إنها أخلاقيات جماعة ملكوت الله كحقيقة واقعة وكرجاء مستقبلي.

5)- إكليمندس السكندري: في القرن الثالث الميلادي كانت الكنيسة تقوى على المجتمع الروماني واليوناني والعكس أيضا، وكانت الإسكندرية مركزاً ثقافيًا وفكريًا وُعرفت الإسكندرية بمكتبتها التي تحوى الكتابات الفلسفية اليونانية والرومانية، ولذلك فإن نظرية **اكليمندس** في الأخلاق تجمع بين مبادئ السلوك المسيحي والهيلنيستي، والخطية عنده ليست طبيعة متأصلة في الإنسان ولكنها تصرف خاطئ أو هي الحيدان عن الصواب.

6)- القديس أغسطينوس (430-351) : عدم حفظ وصايا الناموس ليست في الناموس ولكن في إرادة الإنسان الشريرة، وأن إرادة الإنسان شريرة ليس بسبب عدم قدرته على التمييز بين الصواب والخطأ، ولكن بسبب عجزه عن التصرف حسب ما يعرف.

7)- أخلاقيات الرهبنة : نشأ نظام الرهبنة نتيجة عوامل متداخلة منها هروب بعض المسيحيين للصحراء نتيجة اضطهاد الإمبراطور ديسيوس 250 م وميل البعض للزهد، وهناك ثلاثة أمور يتعهد بها من يريد أن يسلك هذا الطريق وهي: نذر الفقر أي رفض متاع العالم حتى يتخلص الإنسان من حب اقتناء الثروة، ونذر العفة أي نبذ رغبات الدافع الجنسية، ونذر الطاعة أي الخضوع المطلق لمن يرأس الدير تعبيرا عن قهر الإرادة الذاتية للراهب.

نماذج من الفكر الأخلاقي في العصور الوسطي وبدء الإصلاح الإنجيلي في الغرب :

***- توماس الإكويني (1224-1274):**

قام **الإكويني** بالملائمة بين الفلسفة الأرسطية واللاهوت المسيحي والأخلاق المسيحية وتعاليم من سبقوه من الرهبان، استطاع **توما الإكويني** أن يضع نظرة عقلانية تفاؤلية فقد وهب الله للإنسان القدرة على التمييز بين الخير والشر وعليه أن يدرب هذه القدرة بالعقل.

***- مارتن لوثر (1483- 1546):**

سار على نهج **بولس** الرسول في إثبات أهمية المحبة المسيحية والحرية المسيحية بالنسبة لحياة المسيحي في العالم وأعاد فكر **بولس** الرسول إلى دائرة الضوء الذي كان قد اختفى في القرن الخامس الميلادي، ونادى **مارتن لوثر** بعقيدة التبرير بالإيمان وبأن الخلاص عطية من الله لا يناله الإنسان باستحقاق أعماله ولا بطاعته للناموس، فلوثر يتجه اتجًاها أخلاقيًا بعيدًا عن الناموس ومؤسسًا على الإيمان والمحبة.

***- جون كالفن (1509- -1564):**

يتصالح الإنسان مع الله ليصير الله في جانبه فتتغير كل نواحي حياته بسبب تغيير اتجاهه، والحياة المسيحية في نظر **كالفن** هي صراع دائم وصعب حتى يتم تحقيق متطلبات الحياة الجديدة.

II-2-2- الأخلاق في الفكر الإسلامي:

لقد اقتحم التفكير الأخلاقي كلَّ مناحي الحياة؛ كالأدب والطب والكيمياء، والبصريات، والفلك، والرياضيات...، والتي لم يكن هدفها السيطرة على الكون وتغيير طبيعته (كما هو حال الحداثة الغربية)، وإنما كان هدفها فهم حِكمة الله في خلق الكون؛ من أجل استلهام سُبل الاهتداء بالعلم والأخلاق والعدل الإلهي في الأرض.

وبعد مدة من الزمن تراجعت القوة التأثيرية للأخلاقيات الدينية في المجتمع، حينها طفق المفكرون الكبار من الأخلاقيين الصوفية إلى بناء نظرية أخلاقية صوفية ذات منطلقات قرآنية، تمكَّنوا بفضلها من التأثير الأخلاقي في الحياة الفردية خاصَّة ومواجهة الثغرات الأخلاقية الفردية التي بدأت تظهر على النفوس. ومن بين المفاهيم والأسس الأخلاقية المبتكرة عندهم حينها والتي بحثوها آنذاك؛ سياسة النفس، علم السلامة، المراجعة أساس السلوك، مراتب العمل، المقامات والأحوال، أصول الأخلاق، رياضة النفس، "فكرة الضمير".

ويبدو أن **الراغب الأصفهاني** كان أولَ من استعار النموذج الأفلاطوني في تقسيم الفضائل الخُلقية إلى أربع: العفة والشجاعة والحكمة والعدالة، ثم اقتدى به غيره فيما بعد، فأصبح أغلب الإنتاج الأخلاقي في دائرة الفكر الإسلامي حينها خليطًا بين ما هو قرآني وما هو يوناني. وقد أشار الدكتور **محمد عابد الجابري** إلى أن بعض الأقلام الإسلامية في مجال الأخلاق استعارت بعض خصائص التفكير الأخلاقي من النظام الأخلاقي الفارسي، ومن ذلك **الإمام الماوردي** في كتابيه "نصيحة الملوك" و"تسهيل النظر وتعجيل الظفر في أخلاق الملك وسياسة الملك"؛ حيث "كان يفكِّر من منظور ينتمي في هذا المجال إلى الموروث الفارسي".

وأمام هذا الخلط بين المرجعيات الأخلاقية ينبري سؤالان مهمَّان: هل ثمة نموذج أخلاقي نظري معاصر نابع من القرآن الكريم، يصلح أن يكون نسقًا أخلاقيًّا قرآنيًّا خالصًا؟ وما هي أركان هذا النموذج وأُسسه؟

***- النظرية الأخلاقية الإسلامية**

هي نسق معرفي نظري جامع لمبادئ النظام الأخلاقي وقواعده في القرآن الكريم والسنة النبوية، ويشكِّل إطارًا معياريًّا يصلح أن تُبنى عليه الممارسات الأخلاقية وتُقوّم بقواعده.

إن نظرية الأخلاق في القرآن كما صاغها **محمد عبد الله دراز** (ت1958م) تناولت الأخلاق النظرية، بكيفية تأصيلية تجاوز فيها منهجية السابقين التي لم تزد على اجترار أفكار أخلاقية ذات مرجعية يونانية في الغالب؛ كوصفِ مَلَكات النفس ومراتبها، وأقسام أمهات الفضائل وغيرها، إلى وضع إطار نظري جامع للجوانب الكلية والقضايا الجامعة لعلم الأخلاق في القرآن.

***- أُسس النظرية الأخلاقية الإسلامية**

1)- الإلزام

الإلزام أهمُّ ركن تنبني عليه الأنظمة الأخلاقية في المجتمعات البشرية، فلا بدَّ أن "يستند أيُّ مذهب أخلاقي جدير بهذا الاسم على فكرة الإلزام (**l'obligatio**)، ذلك أنه إذا لم يعُد هناك إلزام فلن تكون

هناك مسؤولية، وإذا عدمت المسؤولية فلا يمكن أن تعود العدالة؛ وحينئذ تتفشى الفوضى ويفسد النظام، وتعمّ الهمجية لا في مجال الواقع فحسب بل في مجال القانون أيضًا.

فالإلزام الأخلاقي مبدأ يستند إلى القرآن الكريم باعتباره كتابَ إلزام وتكليف نظرًا لكثرة واجباته الأخلاقية الإلزامية، من قبيل **قوله تعالى**: {إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى} [النحل: 90]، **وقوله تعالى**: {إن الله يأمُركُم أَنْ تُؤَدّوا الأمانات إلى أهْلِها وإذا حَكَمتُم بَيْن النّاس أنْ تحكُموا بالعَدل} [النساء: 57].

إن الأخلاق القرآنية عند **دراز** قائمةٌ على فكرة الواجب الذي يخاطب فينا ملكات النَّفْس المسؤولة عن تخليق ذواتنا وتزكية قلوبنا، قال **الله تعالى**: {قَدْ أَفْلَح مَنْ زكّاها وقَدْ خاب مَنْ دسّاها} [الشمس: 9-10]، فالإنسان كائنًا ما كان يتمتع بحاسة خُلقية تفرض عليه -على الأقل- الإنصات للواجب الخلقي؛ لأنه واجب متناغم في طبيعته مع الحاسة الخلقية، ومن هذا المدخل الفطري الشعوري ينبغي أن تتمَّ محاورة إنسان ما بعد الأخلاق، خاصةً أن الخطاب القرآني "لم يقتصر على الملكات العقلية وحدها، فلقد عُني في الوقت نفسِه عناية كبيرة بإيقاظ أشرف مشاعرنا وأزكاها، بيد أنه لم يحرك هذه إلا تحت رقابة عقلنا، فهو يتوجه إلينا دائمًا، أعني: يتوجه إلى ذلك الجانب المضيء من أنفسنا... ومن المشاعر السامية التي حركها القرآن الكريم فينا، نذكر على سبيل المثال ما جاء فيه دعمًا لسائر واجباتنا الاجتماعية، بالمعنى الأوسع لكلمة (مجتمع) ألا وهو الشعور بالأخوة الإنسانية: {يا أيُّها النّاس إنّا خَلَقْناكُم من ذَكَرٍ وأُنْثَى وجَعَلناكُم شُعوبا وقَبائِل لِتَعارَفوا} [الحجرات: 13]"[31]. إذن، لا نتصور قاعدة أخلاقية بدون إلزام، ومن مميزات القواعد الأخلاقية أن الشرع الإلهي يأمرنا بها، والبصيرة الخلقية بداخلنا تحثُّنا عليها باستمرار وتلومنا في حال عدم احترامها، قال **الله تعالى**: {بل الإنسان على نفسه بَصيرةٌ ولو أَلْقى مَعاذِيرَهُ} [القيامة: 14-15].

2)- المسؤولية الأخلاقية

المسؤولية عنصر مهم جدًّا في النظرية الأخلاقية؛ فهي ترتبط ارتباطًا وثيقًا بفكرتَي الإلزام والجزاء، و"هذه الأفكار الثلاثة...لا تقبل الانفصام، فإذا ما وُجدت الأولى تتابعت الأخريان على إثرها، وإذا اختفت ذهبتا على الفور في أعقابها. وهذا الربط اللزومي بين المسؤولية والإلزام هو سِرُّ التزام الفاعل الأخلاقي بالخلق الحميد ونبذ الخلق الذميم، فيلتزم بالأخلاق ويُعد للحساب والمساءلة، وبالنظر إلى الدور الإيجابي للمسؤولية الأخلاقية فقد ربطها الخطاب الديني بجميع الأنشطة الاجتماعية التي يمارسها الإنسان، وقد جاء في البيان النبوي: "كلكم راعٍ وكلكم مسؤول عن رعيته: الإمام راعٍ ومسؤول عن رعيته، والرجل راعٍ في أهله وهو مسؤول عن رعيته، والمرأة راعية في بيت زوجها ومسؤولة عن رعيتها، والخادم راعٍ في مال سيده وهو مسؤول عن رعيته". وينبغي التنبيه إلى أن قيام المسؤولية الأخلاقية والدينية مشروط بشروط أجملها **دراز** فيما يلي:

*- الطابع الشخصي للمسؤولية، قال **تعالى**: {ولا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرى} [فاطر: 18].

*- الأساس القانوني للمسؤولية: يعلمنا القرآن ألَّا أحد يُحاسَب على أفعاله ما لم يكن قد علم بالأحكام مسبقًا، ويكون هذا الإعلام بطريق خارجي وهو الشرع الإلهي، وطريق داخلي وهو قواعد القانون الأخلاقي، ففي أكثر صورها شمولًا مسجلة ومركوزة في نفوسنا بشكل ما.

*- أن يكون العمل الإرادي متصورًا في ذهن صاحبه بالطريقة نفسِها وبوجهة النظر ذاتها التي تصورها عنه الشرع.

*- الحرية: فلا معنى للفعل الأخلاقي الذي لا ينبع من الإرادة الخالصة.

3)- الجزاء

بالنظر إلى كون الإلزام والمسؤولية جوهر النظرية الأخلاقية يأتي بعدهما ركن مهم وهو بمثابة ضابط لعلاقة الإنسان بالقانون الأخلاقي أَلَا وهو عنصر الجزاء.

فالقانون الأخلاقي يتوجه بقواعده الخلقية إلى إلزامنا بأن نستجيب لدعوته، وبمجرد ما نجيبه نتحمل مسؤولياتنا، وأخيرًا يقوّم القانون مواقفنا حياله ثم يجازينا. فالعملية -إذن- ثلاثية الأطراف وتكشف معنى جامعًا للمسارات الأخلاقية التي يقطعها الفاعل الأخلاقي.

و هناك نوعان من الجزاء : الجزاء القانوني و الجزاء الأخلاقي؛ فالأول ذو أثر مادي خارجي، بينما الثاني يمثل في الجانب الشعوري الباطني في الغالب. (فالمتعة والألم اللذان نحسُّ بهما بعد أن نفعل خيرًا أو شرًّا، وهما ردُّ فعل لضميرنا على ذاته أكثر من أن يكون ردَّ فعل للقانون علينا).

4)- النيَّة والدوافع

النيَّة ركنٌ مهمٌّ في النظرية الأخلاقية القرآنية ويمثِّل الوجه الداخلي للضمير الأخلاقي، وهو الأساس الذي يقوم بدور الدافع الباطني نحو الخير الأخلاقي، ولأهمية هذا الدور جاء التأكيد على عنصر النيَّة في العديد من النصوص الشرعية، هذا الركن يتضمَّن ثلاثة أجزاء أساسية تتجلَّى في: "إدراك ما يجري عمله، وإرادة إنجاز العمل، واستهداف ذات العمل من حيثُ إنه مأمور به وواجب". وهناك جملة من القضايا والإشكالات -المرتبطة بهذا الركن- نعرض لها هنا بشكل سريع:

*- النيَّة شرط لصحة الفعل الأخلاقي:

من الناحية الأخلاقية لا يدخل في باب الأخلاق أيُّ عمل لا يكون في آنٍ واحدٍ إراديًّا وشعوريًّا ومعقودًا عليه النية. .

*- النيَّة وطبيعة العمل الأخلاقي:

أي ما إذا كانت النيَّة تُحدث أثرًا في طبيعة العمل ذاتها. وبعبارة أخرى، ما إذا كان العمل السيئ الذي يقع بحسن نيَّة يكتسب قيمة أخلاقية ويصبح عملًا فاضلًا، وما إذا كان العكس صحيحًا".

*- فضل النيَّة على الفعل:

الجانب القلبي له تأثير فعَّال بالخير والشر في الجانب الحسي من الإنسان، فسلامة العنصر المادي (البدن) رهينةٌ بسلامة العنصر الأخلاقي (القلب)، قال النبي صلى الله عليه وسلم: "ألا وإن في الجسد مُضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، أَلَا وهي القلب"[66].

*- إخلاص النيَّة واختلاط البواعث:

حسم القرآن الكريم أمر النيَّة الخالصة لدى الإنسان، وحصرها في التوجُّه القلبي الخالص إلى عبادة الله عز وجل القائل: {وَما خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدونِ} [الذاريات: 56]. ومن ثَمَّ فإن "كل البواعث التي تضاف إلى إرادة الطاعة تفسد قيمة العمل وتحرمه من رضا الله تعالى"[67]، هذا التوجُّه المطلق هو المطلوب لكي نقول عن النيَّة إنها حسنة.

5)- الجهد الأخلاقي

توجد دائماً علاقة وثيقة بين عنصرين مهمين في النظريته الأخلاقية(النيَّة والعمل) فبعد عقد النية يأتي عنصر العمل باعتباره "السلاح الوحيد، الهجومي والدفاعي، في معركة الفضيلة".

وهناك نوعين من الجهد الأخلاقي:

*- جهد مُدافعة: ويقصد به تلك "العملية التي نعارض بها الميول السيئة التي تحثنا على الشر باستخدام قوة مقاوِمة كفيلة باستبعاد هذه الميول، فيكون واجبنا العاجل في هذه اللحظة هو كَبْت هذه

الأهواء" قال سبحانه وتعالى: {وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوى فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى} [النازعات: 49-50].

*- جهد مُبدِع: وهو عملية تعقب النوع الأول، فبعد تخليص الإرادة الأخلاقية من الميول السيئة، فإن الفاعل الأخلاقي يبدع ميولًا نافعة حسنة ويسعى إلى زرعها في إرادته الحرة. كالتطوع والبذل.

III- المصطلحات المرتبطة بمفهوم الأخلاق:

III- 1- علم الأخلاق ethics :

احد العلوم المعيارية يقوم على دراسة القيم وعلاقتها بأنماط السلوك والأنشطة المختلفة. أي لا تقتصر على دراسة ما هو كائن أو الأوضاع الراهنة ولكن بما ينبغي أن تكون عليه، ولذا فإن مهمته هي "وضع الشروط التي يجب توافرها في الإرادة الإنسانية وفي الأفعال الإنسانية لكي تصبح موضوعًا لأحكامنا الأخلاقية عليها

III- 2– النظام الأخلاقي (المعياري) moral order:

هو مجموعة القيم والمعايير التي تحكم السلوك الاجتماعي في جماعة أو مجتمع ما، أي معاينة ما إذا كان السلوك متفقاً مع القيم والمعايير السائدة.

III- 3- **المسؤولية الأخلاقية moral responsability**:

أهلية العاقل للجزاء على أفعاله الاختيارية، وتفترض المسؤولية الأخلاقية العقل والروية فمن فقدهما فلا مسؤولية عليه.

III- 4- **حاسة أخلاقية moral sens**

قدرة الانسان على التمييز بين الخير والشر بواسطة الحدس.

III- 5-**قاعدة خلقية moral code**

أفكار الصواب والخطأ التي يؤمن بها فرد أو جماعة أو مجتمع ما.

III- 6- **نسق اخلاقي moral system**:

نسق أخلاقي يتكون من مجموعة الأفكار الخاصة بالصواب والخطأ بالإضافة إلى المبادئ الأخلاقية للدين أو الإيديولوجية أو الثقافة الخاصة.

IV- مصدر الأخلاق :

أُختلف في بيان مصدر الأخلاق تبعاً لاختلاف نظرة الناس إلى الخير والشر، مما يعد سلوكاً يتعامل به الناس فيما بينهم. ولقد تم تحديد05 مصادر للأخلاق مختلفة ومتمايزة هي:

*- المجتمع بعاداته وأعرفه

*- أم العقل البشري بقدراته وطاقاته

*- أم الضمير الإنساني بعواطفه وانفعالاته

*- أم أنها قيم اللذة والسعادة والمنفعة

*- أم أن هناك مصدرا أعلى وأسمى من هذه المصادر البشرية.

هذه أهم الاتجاهات الفلسفية الأخلاقية في تاريخ البشرية التي لم تتفق على مصدر واحد لتقويم سلوك الإنسان ولم تحدد له مرجعاً سلوكياً أخلاقياً يُحتكم إليه؛

IV-1- المذهب الأول: يرى أصحاب هذا المذهب أن المجتمع بأعرافه وعاداته هو مصدر الأخلاق ومقياسها. والعرف مجموعة من العادات التي درج الناس عليها جيلاً بعد جيل في مجتمع ما، ورأوا

ضرورة احترامها وأن تقوم الحياة على أساسها ومن خالفها يعاقب . غير أن الاعراف كثيرا ما يتم نقدها واتهامها خلقيا كاعراف الجاهلية في وأد البنات.

IV-2- المذهب الثاني:

للذين يدعون ان العقل هو المصر الوحيد للاخلاق، وان كل الاحكام القيمية على سلوك الافراد لا بد ان تكون نابعة من العقل وحده، بهذا التقرير لا نريد أن نحط من قدر العقل ولا أن نقلل من منزلته فهو من أعظم نعم الله على الناس، غير اننا لا يجب ان نغفل قدرات الافراد وفروقاتهم العقلية، وقد تبين قصور العقل عن إدراك بعض ما يحيط به ويدور في فلكه، فكيف يصح بعد هذا أن يكون العقل هو مقياس للأخلاق ؟ فالخلاصة أن العقل كما هو الحال في العرف لا يصلح وحده لأن يكون مصدرا للأخلاق ولا مقياسا لها، ولا حكما عليها .

IV-3- المذهب الثالث :

يرى أصحاب هذا المذهب أن الضمير البشري هو مصدر الأخلاق ، والمقصود بالضمير القوة الخفية النابعة من نفس الانسان ، فتوضح له طريق الخير وتدفعه إلى سلوكه وتبين له سبيل الشر وتحذره منه، ويشعر الانسان براحة في طاعة هذه القوة الخفية وبتأنيب عند عصيانها .

ولكن هل يصلح الضمير مصدرا للأخلاق ومقياسا لها ؟

إن المتأمل في أحكام الضمائر يجدها غير ثابتة ، بل هي متغيرة مختلفة بحسب الزمان والمكان، فالضمير في أوروبا غيره في أواسط إفريقيا والبلدان الاسلامية.

IV-4- المذهب الرابع :

وذهبت طائفة أخرى إلى أن مقياس الأخلاق وميزانها يرجع إلى اللذة والمنفعة، فما يحقق اللذة المادية يكون خيرا وما يحقق ألماً مادياً وضرراً يكون شراً يجب تجنبه والبعد عنه، فالفضيلة تدور مع اللذة والمنفعة وجوداً وعدماً. ومن تأمل هذا المذهب بواقعية ونظر ثاقب رأى أنه أشبع جانب الحس والمادة وأغفل الجانب الروحي والمعنوي في الانسان ، وهو جانب له أثره وله أهميته في حياة الفرد وفي كيان الاسرة ونظام المجتمع.

ويمكننا القول : إن المنهج الرباني الأخلاقي الذي جاء به الاسلام الذي يمثل **المذهب الخامس** هو الاصلح مطلقا ليكون أساساً للأخلاق ومعياراً تُقاس به السلوكيات وتحتكم إليه.

V- العلاقة بين العلم والاخلاق:

لا يكاد يختلف عاقلان حول اهمية العلم في حياة الانسان فبه عرف نفسه ومحيطه، وبالعلم استطاع فك غموض الموجودات حوله وتمكن من تطويع العناصر الطبيعية لخدمته وتسهيل امور حياته، فنظم العمليات العلمية ونظر للحقائق والمعارف، واجتهد في تصنيف العلوم والتأسيس لعلوم اكثر دقةً وتفصيلاً.

فتنافست الامم والمحتمعات في طلب العلم اجتهادها في تحسين حياة افرادها والبحث عن مقومات التحكم والسيطرة التي توفر العلوم الجانب الاهم منها، واتجهت هرولة البحث عن العلم في اتجاهات متعددة متمايزة اكثرها كانت لخدمة الانسان وتحسين صحته ومسكنه وطرق تنقله، وفيها ايضا من جهة اخرى بذور الهدم وتدمير الانسان حينما استغل العلم في سياقات الجشع والحروب والسيطرة، فكان لا بد ان تظهر خطابات تعميل الاخلاق ومقولات العودة الى القيم وضبط سلوكات العلماء والمفكرين، الامر الذ ادى الى ترادف المصطلحين في كثير الاحيان (العلم والاخلاق).

يظن البعض ان العلم والاخلاق مفهومين منفصلين غير مرتبطين لاختلاف مكوناتهما- المادية للعلم والمعنوية للاخلاق- وتمايز جنسيهما، لكنهما في الواقع مرتبطبين ارتباط التكامل والاتمام؛ حيث ان العلم دون اخلاق مفتاح لكل المخاطر، والاخلاق دون العلم جهل يسيء الى الاحكام الخلقية نفسها فتصبح خاطئة مجابنة للصواب. فالعلاقة بين العلم والأخلاق اذن هي علاقة تكاملية قلا أثر طيب للعلم بدون أخلاق ولا أخلاق صحيحة من غير علم يبصّر ويرشد لأنه العين المبصرة للأخلاق.
فالأخلاق والقيم هما الوعاء الحافظة والراعية للعلم وتترتب على اقتران العلم بالأخلاق آثار إيجابية تعم الأفراد والمجتمعات على حد سواء منها قوة شخصية الفرد حامل العلم وثقة الناس به وبعلمه وتشجيع الناس على طلب العلم، والبحث عنه وتتبعه وكذلك قوة تماسك المجتمع وعلوّ هيبته لوجود نماذج متعددة من العلماء المتسربلين بالأخلاق في علمهم.
فأنت تجد العالم الصادق في علمه أياً كان تخصص مجال علمه، فكل العلوم متى قيدت وحفّت بالأخلاق فإنها حتماً ستعود بالنفع على الجميع كعلوم الطلب والهندسة وغيرها.
ولا ننسى تشجيع روح التنافس بالمجتمع نتيجة ما يراه الناس من خلق العلماء والناس بفطرتهم السوية وسجاياهم الحسنة تميل نفوسهم إلى تقليد وتتبع الإنسان السوي الناجح في حياته النافع لغيره، ومن ذلك أيضاً ريادة الأمم وعلو شأنها وذلك باقتران العلم بالأخلاق وكذلك فإن لتجرد العلم من الأخلاق الحسنة آثاراً وخيمة تعود على الأفراد والمجتمعات على حد سواء منها عدم ثقة الناس بحامل العلم لما وجدوا فيه من أخلاق سيئة ذميمة وتنفير الناس من طلب العلم والبحث عنه وعدم الاكتراث بحملته ووجود انتشار الضرر كأثر مباشر لانتزاع صفة الأخلاق كالصدق والأمانة من العالم وكطبيب يفتقر إلى الأمانة أو مدرس يُؤثر نفسه على غيره على حساب المبادئ والقيم ويضحي بالصدق من أجل مصلحته الشخصية، وكذلك قتل روح الهمة والتنافس لطلب العلم في المجتمع لنفور الناس من النماذج التي يرونها في طلاب العلم والعلماء وتسمم العلاقات الاجتماعية وتفكك المجتمعات وفي المحصلة النهائية بتقهقر الأمم والشعوب وأفول نجمها نتيجة لأزمة لتراكم الأخطاء المترتبة على العلماء بسبب غياب وارع الأخلاق لديهم .

*- خطورة العلم بدون الأخلاق

في العصور الأخيرة وصل العلم لمجموعة من التجارب الخطيرة، فلقد حدث تقدماً رهيباً في مجال الأبحاث النووية وصناعة القنبلة الذرية وإن لم توجد قواعد أخلاقية تحدد طرق التعامل مع هذه التجارب وحصر استخدامها فيما ينفع البشرية، فإن العلم هنا سيتحول لقنبلة تدمر البشرية وتقضي على تطورها للعديد من الأجيال.

*- خطورة الأخلاق بدون علم

والأخلاق هي طريقة يحدد بها الإنسان سلوكه مع البشر حوله وطريقة حكمه على الحياة، والمبادئ التي ينتهجها الإدارة شئون حياته، والأخلاق بدون العلم تجعل عقل الإنسان مفتوحاً لاكتساب أي فكرة خطرة تلبس ثوب الأخلاق، وأبرز مثال على ذلك، التطرف الذي يسود المجتمعات، فكل المتطرفين لديهم إدعاء أن كل الأعمال التي يقومون بها تقوم على دعائم اخلاقية وتحارب الفساد الأخلاقي والديني، بينما هي في الحقيقة أفكار متطرفة عن الأخلاق سادت لعدم وجود علم بالحياة والدين وبطبيعة البشر.

V- 1- أهمية سيادة العلم والأخلاق في المجتمع

سيادة العلم والأخلاق من أهم عوامل نجاح المجتمع وذلك للأسباب الآتية:

1)- العلم والأخلاق من أهم عوامل رفعة المجتمع وسيادته وتماسكه.
2)- انهيار قيم العلم والأخلاق تؤدي إلى انهيار المجتمع بأكمله، حيث أن الجهل والفساد لهما أكبر تأثير على تدمير سلوكيات الأفراد نحو أنفسهم ونحو مجتمعاتهم، لذلك كلما ارتفعت قيم العلم والأخلاق في المجتمع كلما زاد رقيه وتقدمه.
3)- الإنسان الذي يتحلى بالعلم والأخلاق يكون صاحب شخصية قوية ويحصل على ثقة الآخرين بسرعة.
4)- العلم والأخلاق من أهم الصفات التي تساعد الفرد على أن يكون إيجابي وسط الآخرين، ويساعدهم ويشجعهم للسعي إلى النجاح.
5)- الإنسان صاحب الأخلاق الكريمة يكون متفوقاً في عمله وفي الخدمة التي يقدمها للمجتمع بكل أنواعها، سواء كان يعمل في مجال الطب أو الهندسة أو التدريس، فهو يتقن عمله ويحاول أن يقدمه على أكمل وجه.
6- العلم والأخلاق من أهم عوامل زيادة التنافس الشريف في المجتمع الأشخاص تميل إلى تقليد الأشخاص الناجحة وتحاول أن تتبع خطاهم وتصرفاتهم، وهذا من شأنه سيادة الأخلاق الحميدة في المجتمع وزيادة عدد الأفراد الذين يسعون إلى النجاح الشريف القائم على القواعد الأخلاقية.

V- 2- اخلاقيات البحث العلمي:

V- 2-1- تعريف أخلاقيات البحث العلمي:

يعبر مصطلح "أخلاقيات البحث" (Research Ethics) عن تطبيق القواعد الأخلاقية ومدونات السلوك المهني في عملية جمع المعلومات حول الموضوعات البحثية وتحليلها وإعداد التقارير عنها ونشرها، وخاصة أثناء التعامل مع حقوق الأشخاص في الخصوصية والسرية والموافقة في ظل الأوقات التي انتشر فيها بين الباحثين الغطرسة في تعاملهم مع موضوعات البحث بدافع البحث عن الحقيقة، وهذه السلوكيات هي الدافع لاعتماد قواعد سلوك رسمية لتصحيح هذه الممارسات وزيادة التركيز على إجراءات البحث الأخلاقية وفرضها على الباحثين تحت مسمى "أخلاقيات البحث".

V- 2-2- أهداف أخلاقيات البحث:

تم وضع أخلاقيات البحث من أجل تحقيق الأهداف التالية:
1)- حماية المشاركين في إعداد البحث العلمي وكرامتهم وحقوقهم وما هو لصالحهم.
2)- التأكد من توجيه البحث بالطريقة الصحيحة التي تساعد في تحقيق الخير لصالح جميع الأشخاص و/ أو الجماعات و/ أو الحضارة ككل.
3)- ضبط سير خطط البحث وأحداثه من أجل التحقق من موثوقيته الأخلاقية، إلى جانب مراعاة قضايا مفصلية وخطيرة مثل التحكم في المخاطر وحماية الخصوصية وغيرها.

V- 2-3- أخلاقيات البحث العلمي:

تقوم أخلاقيات البحث ومبادئه بتوجيه سلوك الباحث وتثقيف ومراقبة العلماء الذين يجرون الأبحاث لضمان مستوى أخلاقي عالٍ، وأهم المبادئ الأخلاقية:
1)- الأمانة (Honesty): وتعني الأمانة أنه يجب على الباحث تحري الصدق وتبليغ البيانات والنتائج والأساليب والإجراءات وحالة النشر بأمانة ودون تلفيق أو تزوير أو تحريف للبيانات.

2)- الموضوعية (Objectivity): وتعني الموضوعية أنه يجب على الباحث تجنب التحيز أثناء التصميم التجريبي وتحليل البيانات وتفسير البيانات ومراجعة النظراء وقرارات طاقم البحث وكتابة المنح وشهادة الخبراء وغيرها من الجوانب.

3)- النزاهة (Integrity): من المهم أن يتمتع الباحث بالنزاهة للمحافظة على وعوده واتفاقياته والتصرف بصدق.

4)- الحذر (Carefulness): يجب على طاقم البحث التحقق من البحث وفحصه بعناية وبشكل نقدي من أجل تجنب الأخطاء والإهمال، كما أنه من المهم الاحتفاظ بسجلات لأنشطة البحث.

5)- الانفتاح (Openness): من أخلاقيات البحث العلمي أن تتم مشاركة البيانات والنتائج والأفكار والأدوات والموارد والانفتاح الأفكار الجديدة وتقبل النقد.

6)- احترام الملكية الفكرية (Respect for Intellectual Property): يجب الحصول على الإذن قبل استخدام البيانات أو الأساليب أو النتائج من أصحابها قبل نشرها في البحث العلمي لنسب الفضل فيها لهم والحفاظ على براءة الاختراع وحقوق التأليف والنشر وكافة حقوق الملكية الفكرية.

7)- السرية (Confidentiality): من أخلاقيات البحث الحفاظ على سرية المعلومات الخاصة مثل الأوراق أو المنح المقدمة للنشر وسجلات الموظفين والأسرار التجارية أو العسكرية وسجلات المرضى.

8)- النشر المسؤول (Responsible Publication): يجب مراعاة المسؤولية أثناء النشر بحيث يتم النشر بدون إسراف وباعتدال من أجل تعزيز البحث والمنح الدراسية وليس لتعزيز المسيرة المهنية فقط.

9)- التوجيه المسؤول (Responsible Mentoring): من المهم المساعدة في تثقيف وتوجيه وإرشاد الطلاب من أجل إفادتهم والسماح لهم باتخاذ قراراتهم بأنفسهم.

10)- احترام الزملاء (Respect for Colleagues): من الواجب احترم الزملاء المشاركين ومعاملتهم بإنصاف.

11)- مسؤولية اجتماعية (Social Responsibility): من أهداف البحث العلمي تعزيز الصالح الاجتماعي ومنع أو تخفيف الأضرار الاجتماعية من خلاله إلى جانب التعليم العام والدعوة.

12)- عدم التمييز (Non-Discrimination): تجنب التمييز ضد الزملاء أو الطلاب على أساس الجنس أو العرق والاعتماد على الكفاءة العلمية والنزاهة كمقياس للتميز.

13)- كفاءة (Competence): يجب الحفاظ على الكفاءة المهنية والخبرة وتطويرها من خلال متابعة التعليم مدى الحياة.

14)- الشرعية (Legality): معرفة القوانين والسياسات المؤسسية المتعلقة بموضوع البحث والالتزام بها.

15)- الاعتناء بالحيوان (Animal Care): من أخلاقيات البحث العلمي عدم إجراء تجارب غير ضرورية على الحيوانات ووجوب احترام ورعاية الحيوانات المستخدمة في في البحث.

16)- حماية الأشخاص (Human Subjects Protection): في الأبحاث العلمية على البشر يجب على الباحث التقليل من الأضرار والمخاطر وإفادة الأشخاص واحترام كرامة الإنسان والخصوصية والاستقلالية.

د. بن الطاهر